في الظلمة

تشرنوبيل عام 1986: تسترجع ليلي بوبرزسكا، المعلمة والأم الأوكرانية الشابة، اللحظات والأيام والسنين التي تلت الحادث النووي.

في اليوم الذي أعقب انفجار يوم السبت السادس والعشرين من نيسان واصل معظم أهالي مدينة كييف حياتهم المعتادة في غفلة هانئة. وفي ذلك اليوم أقامت كلية اللغات الأجنبية التي كنت أعلِّمُ فيها حفلة موسيقية للهواة نظمها المعلمون والطلاب. لقد كنا جميعاً بحالة مزاجية ممتازة إلى أن قالت إحدى الزميلات: "أوه، إنكم لا تعلمون بعد ما الذي جرى في الليلة الماضية –لقد وقع انفجار في محطة تشرنوبيل للطاقة". وقد صادف أن كانت الزميلة ابنة وزير داخلية أوكرانيا.

لم تكن هناك أية معلومات من أي مصدر سوفييتي رسمي في ذلك اليوم، أو في اليوم التالي، ولا طيلة يوم الاثنين. لقد بقي الناس خلال الأيام الثلاثة بعد الحادث في عتمة تامة، ولكن هذا التعتيم للمعلومات أتى مخالفاً للخلفية التي كنّا نراها –من سياراتِ إسعافٍ وباصاتٍ فارغة تزحف نحو الشمال وأفواج تتحرك– حينما قرَّرت السلطات إخلاء السكان ضمن عشرة كيلومترات من محطة الطاقة.

ولا عجب فقد بدأت الشائعات تنتشر وأخذنا نشعر بفزع متزايد. ولم يكن أحد يعرف درجة التلف الذي أصاب المفاعل وما إذا كنا نتوقع انفجاراً نووياً كاملاً أو أمراً بالإخلاء. ولم يخبرنا أحد بالاحتياطات التي يجب أن نتخذها لحماية أولادنا وأنفسنا، هذا وقد لجأ الناس في طلب المعلومات إلى العلماء النوويين وإلى الأطباء الذين كانوا يعرفونهم –والذين أصبحوا فجأة مقرَّبين إلى حدٍّ كبير. ولكن هؤلاء، بدون معطيات مثبتة، لم يكن لديهم ما يغيث.

إقرار متردِّد:

وأخيراً في الساعة التاسعة من مساء يوم الاثنين 28 نيسان/أبريل ظهر على تلفزيون موسكو مذيع أخبار تلفزيوني وقد خلا وجهه من أي تعبير، وقرأ أربع جملٍ موجزة نقلاً عن نصٍّ صادر عن مجلس الوزراء، وقد أثارت تلك الجمل عديداً من الأسئلة أكثر ممّا أجابت عنه: "لقد وقع حادث في محطة تشرنوبيل للطاقة وتحطم أحد المفاعلات. ويجري اتخاذ الإجراءات لإزالة تبعات الحادث، وتقدَّم المساعدات لأولئك الذين تأثروا بالحادث كما تشكَّلت لجنة حكومية بهذا الخصوص".

بعدئذٍ ظلَّت آلة الدعاية الرسمية تحاول إيصال رسالة أن الوضع طبيعي. وحتى حينما زادت مستويات الإشعاع في كييف بشكل مثير في 30 نيسان/أبريل قرَّرت السلطات المضي قُدُماً في إعداد استعراض يوم أيّار/مايو العسكري في كييف. وقد مشى آلاف الناس مع أطفالهم على طول الشارع الرئيسي. وأكثر من ذلك، فقد اصطحب قادة الحزب الأوكراني الذين حيوا الجماهير صغار أحفادهم معهم وذلك لإظهار أن الأمور كلها كانت تسير على ما يرام. وما لبث أن سمع سكان كييف عبر الإشاعات أنه قد تمّ بعد العرض مباشرة نقل وإجلاء أولاد المذكورين وأحفادهم بعيداً إلى المطار، مما جعلنا نشعر بأننا مخدوعون وفي غاية الامتعاض.

وفي أوائل أيار/مايو أقرَّت السلطات بأن الحادث كان أكثر جدية مما كان يُظن في البداية، ولكن ظلَّ "أن لا شيء نقلق منه"

وقد أذاعت وسائل الإعلام المحلية ونشرت توصيات بوجوب اتخاذ سكان كييف بعض الإجراءات الوقائية مثل إبقاء النوافذ مغلقة وغسل طوابقهم. ولكن بحلول ذلك الوقت تقوَّضت الثقة تماماً في الإعلام الرسمي، وقرَّر معظم سكان كييف (بما فيهم أنا شخصياً) أنَّ كييف لم تعد مأمونة لأولادنا.

مدينة بلا أطفال:

وبحلول الأسبوع الأول من أيّار/مايو بدأت هجرة جماعية للأمهات والأطفال من كييف. وقمت بترحيل طفلتي التي تبلغ من العمر ثلاث سنوات إلى موسكو للإقامة مع الأقارب. وفي محطة الخطوط الحديدية في كييف كان الآباء الثائرون يدفعون أطفالهم عبر نوافذ القطار سائلين الركاب الأكثر حظاً تسليمهم إلى أقاربهم في محطة المُنْتَهى، في حين انغمس باقي الناس في شرب النبيذ الأحمر بكميات غير مسبوقة (ظناً منهم أنَّ ذلك يساعد في إزالة الإشعاع من أجسامهم) وبمزاح سوداوي، وبدت كييف بدون الأطفال موحشة مثل حكاية مدينة هاملن من حكاية الجن "الزمّار الأرقط The Pied Piper".

وبعد سنة على الأقل من وقوع الكارثة عاش أهل كييف في حالة جنون نووية وكانت تهيج إشاعة كل شهر بوجود خطر كبير من حدوث انفجار نووي وأنَّ نهر دينيبر Dnieper قد تلوث بالإشعاع إلى درجة عالية وهلم جرّا. وكنا نلقي النكات "أننا سنموت من المعلومات وليس من الإشعاع"، ونعني بذلك سيل الإشاعات المتناقضة إلى حدٍّ كبير وانعدام الثقة الكلي في أية معلومات رسمية.

استراتيجية ارتدت على صاحبها:

بادئ ذي بدء كانت "استراتيجية الخطاب" للدولة السوفييتية تقوم في هذا الشأن على التعتيم الكامل للمعلومات أو إخفائها. وعندما فشلت هذه السياسة حاولوا التقليل من درجة حدة الكارثة لتبييض وجه الدولة ومصدر كبريائها المتمثل في –الصناعة النووية السوفييتية. وبدا ذلك للناس العاديين مكابرةً لا تُصدَّق واستخفافاً صارخاً بحياتهم.

لقد كانت حالة نمطيّة في كيفية عدم التبليغ عن الأزمات لأن الدولة الشيوعية كان من البيِّن أنها تضع مصالح مؤسساتها فوق أرواح الناس وصحتهم وبيئتهم. ولقد ارتد ذلك بنتائج عكسية في غاية السوء. إذ إنّها لم توجه ضربة قوية إلى سمعة الصناعة النووية السوفييتية عالمياً فقط، ولم تجعل عامة الناس أكثر إلماماً بما يرافق ذلك من مخاطر فحسب، بل تفتَّقت أيضاً عن سياسة الشفافية glasnost التي ساهمت بدورها بزوال النظام الشيوعي. ويمكنكم القول إنه كانت للسحابة النووية بطانة فضية.

ليلي بوبرزسكا هي مؤسِّسة ومديرة المستشارية المقيمة في لندن ومن اللاعبين الدوليين في الإعلام، كما أنها خدمت تشكيلة منوعة من المؤكِّلين، بما في ذلك البنك الدولي، والاتحاد الأوربي، ووزارة التطوير الدولي والوكالة الدولية للطاقة الذرّية IAEA . وقد انتقلت من كييف إلى لندن مع زوجها وابنتها في العام 1992 حيث عملت مع مؤسسة BBC العالمية لمدة عشر سنوات حول المشاريع الإذاعية في بلدان الاتحاد السوفييتي السابق.

بريدها الإلكتروني: mpinternational@lycos.co.uk

"لقد تقوَّضت الثقة تماماً في الإعلام الرسمي، وقرَّر معظم سكان كييف، (بمن فيهم أنا شخصياً) أن كييف لم تعد مأمونة لأولادنا."

الصورة: ليلي بوبرزسكا مع ابنتها في أوكرانيا.